

فيلكس فارس

١٨٨٢ - ١٩٣٩

يعرّف فيلكس فارس بالأديب والشاعر والخطيب والمترجم وصاحب الصداقات العديدة مع أدباء عصره وكاتب المقدمات للكاتب العديدة. كما يعرّف بأنه كوّن نفسه بنفسه. إذ هو لم يذهب إلى المدرسة إلا لمدة عامين في مطلع شبابه. لكنه استقى من والده ووالدته الفرنسية كل ما كان يحتاج إليه من معرفة من أمور الدنيا ومن ثقافة واسعة. عاش القسم الأكبر من حياته في لبنان. لكنه تنقل في فترات مختلفة بين سوريا والأستانة والولايات المتحدة الأمريكية. وقضى القسم الأخير من حياته في مصر التي اشتهر فيها أديباً وشاعراً وكاتباً في صحافتها وفي الصحافة العربية. وتعتبر ترجمته لكتاب نينشه "هكذا تكلم زرادشت" والمقدمة الطويلة التي وضعها للكتاب، المصدر الأساسي لبداية شهرته. وكثرت التأويلات حول مواقفه الفكرية استناداً إلى ترجمته لهذا الكتاب. لكن كتاباته المتعددة في الصحافة، لا سيما في مجلة "الرسالة" التي أسسها أحمد حسن الزيات تقدم للقارئ مواقفه التي تعبر عن شخصيته. وهي مقالات تناول فيها فيلكس قضايا متعددة وكتب العديد من المقدمات للأعمال الأدبية التي أصدرها أدباء عصره، وناقش بعضهم فيها في الاتفاق والاختلاف. يقول في مقال له عن صديقه مصطفى صادق الرافعي بعد وفاته: "لكل كاتب منهجه، ولكل مفكر تقديره. وما أذهب إليه في تحديد الرافعي هو ما تيقنته فيه قبل أن تنشأ بيننا أية علاقة شخصية. إذ رأيت فيه الأديب المطبوع المتمرد على كل مشايعة وتقليد. فهو مثال جديد للأدب العربي القديم يستلهم أجواء الشرق ويلبس تفكيره حلة من لغة الجنان لا يسع كاتباً من عباقرة سائر الأمم أن ينسج على منوالها. الرافعي هو أحد أعلام العرب المعدادين، أحد الأئمة السائرين في الطليعة من فيالق الأدباء في عصر النهضة الجديدة".

ولد فيلكس فارس في بلدة صليما في جبل لبنان في عام ١٨٨٢. والده هو حبيب فارس الدكتور في الحقوق. كان كاتباً معارضاً وينشد الحرية والاصلاح. فأغضب الدولة العثمانية، فاضطهده. فاضطر إلى الهجرة إلى مصر حيث أصدر مجلة "صدى الشرق" في عام ١٨٨٩. كان لثقافة والد فيلكس العربية وثقافة والدته الفرنسية تأثيراً كبيراً عليه. أمضى فيلكس عاماً ونصف العام في المدارس.

كان العام الأول في مدرسة صليما، وكان نصف العام الثاني في المدرسة الوطنية في بلدة بعبدات. لكنه انصرف إلى تثقيف نفسه بنفسه. فأخذ العلم وروح النضال وحب الحرية عن والده الذي دافع عن قضايا لبنان الوطنية في مجلته "صدى الشرق" التي توقفت عن الصدور في عام ١٩١٧ بعد ثمانية وعشرين عاماً من صدورها. أما والدته الفرنسية فقد حببت إليه اللغة الفرنسية والفن والموسيقى. اضطرت العائلة إلى الانتقال من بلدة صليما إلى بلدة المريجات في البقاع اتقاءً للاضطهاد. وقد شذّ الاضطهاد ذكاء فيلكس فاندمج في جو العائلة الثقافي وأحب الشعر الفرنسي ونظمه. وكان جريئاً في التعبير عن مواقفه. وصار خطيباً مفوهاً إلى الحد الذي أطلقت عليه صفة أمير المنابر. مارس فيلكس نظم الشعر مبكراً. وكانت غالبية قصائده التي كتبها بين عام ١٨٩٦ وعام ١٨٩٨ قصائد مناسبات جمعها في ديوان بعنوان "زهر الربا في شعر الصبا". وبدأ بعد ذلك بترجمة الكتب في مواضيع مختلفة أهمها في القضايا المتعلقة بالاصلاح الاجتماعي.

في عام ١٩٠١ بدأ يمارس تدريس اللغة والأدب بالعربية والفرنسية. فدرّس لدى الكبوشيين في بلدة عبيه وفي مدرسة الآداب الوطنية في بلدة الشبانية. وقام في تلك الفترة بتأليف كتاب للقراءة يتضمن نصوصاً مختارة من اللغتين العربية والأجنبية مرفقة بمقدمة طويلة بيّن فيها ما يراه ضرورياً في تعليم المواد المختلفة. لكن التعليم لم يكن يكفي لتأمين معيشته. فترك المهنة وبدأ يمارس تجاربه في الخطابة وكتابة المسرحيات. وبدأ ينشر منذ عام ١٩٠٢ مقالاته في مجلتي "أنيس الجليس" و"لويس" المصريتين لصاحبتهما ألكسندرا أفبيرينو. ساعدته في ذلك معرفة والده بالسيدة المذكورة. وألّف رواية "القضاء أو نصرّة العرفان" و"العدل والحب أو رواية الحب الصادق". كما اشتهر باكراً بقصائده في مدح ناظم باشا والي الشام. فلَقّب بشاعر "ناظم باشا" وكان ذلك بين عامي ١٩٠٢ - ١٩٠٨. إنتقل إلى مدينة بعلبك والتحق بالعمل في الادارة العامة الفرنسية للسكك الحديدية التي كانت تمد الخطوط الحديدية بين حماه

وحلب. وبقي في بعلبك لمدة عامين (١٩٠٥ - ١٩٠٧) كوّن له خلالها صداقات مع أهلها ومع رؤسائه في العمل. ولأن الأجر الذي كان يتقاضاه لم يكن يكفيهِ ترك العمل.

لم ينشط فيلُكس في العمل السياسي تجنباً لم أصاب والده من اضطهاد. لكنه كان يراقب الأوضاع القائمة بدقة وحذر. وفي عام ١٩٠٨ بدأ فيلُكس يزود الصحف والمجلات بالقصائد والمقالات في لبنان وفي المهاجر الأميركية. فراسل مجلة "الجامعة" وجريدة "الهدى" لنعوم مكرزل اللتين كانتا تصدران في أميركا. كما كتب في جريدة "النصير" في لبنان. وقادته مواقفه إلى الانتماء إلى جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تعمل سراً من أجل الإصلاح في السلطنة العثمانية ومن أجل التخلص من السلطان عبد الحميد الثاني. لكن تعصب تلك الجمعية للعرق التركي جعل الشعوب غير التركية في السلطنة تتكلم ضدها فأسس حزب الائتلاف. إمتد الانقسام إلى لبنان بين الحزبين. لكن فيلُكس فارس الذي كان مؤمناً بمبادئ الثورة الفرنسية "حرية. مساواة. إخاء" اعتلى المنابر دون أن يخشى خصومه ودافع عن جمعية "الاتحاد والترقي" وعن مبادئها. وأصدر في بيروت صحيفة "لسان الاتحاد". لكنها توقفت في عام ١٩١١. وقد شاركه العمل فيها كل من أمين الريحاني وماري عجمي الأديبة السورية صاحبة مجلة "العروس" وولي الدين يكن. وفي تلك الفترة سافر إلى الأستانة (١٩١٠) ليحضر إحدى جلسات مجلس "المبعوثان". ومن الأستانة أستدعي لتدريس آداب اللغة الفرنسية في المدرسة السلطانية. وبقي فيها حتى أواخر الحرب العالمية الأولى. وخلال وجوده في الأستانة أتقن اللغة التركية وعيّن ترجماناً لولاية بيروت. لكنه لم يعمل بتلك الوظيفة إلا لمدة أربعة أشهر، عاد بعدها إلى حلب وبدأ يكتب في مجلتيّ "العروس" و"المراقب" السوريتين. ولقي نجاحاً باهراً وانهمرت عليه رسائل الشكر والتقدير من الأهلين ومن الأدباء. في فترة الانتداب الفرنسي على لبنان بعد الحرب العالمية الأولى أنهى وظيفته في دائرة حصر التبغ في سوريا وعاد إلى لبنان.

وفي عام ١٩٢١ سعى فيلكس لتأسيس رابطة فنية تجمع بين أبناء الوطن من مختلف الطوائف وتقاتل التعصب والتفريق وانحذار الأخلاق. وجعل بيروت مركزاً لها. وعندما أصيب بالمرض سافر إلى الولايات المتحدة الأميركية برفقة جان والياس الدبس بهدف العمل على توحيد المهاجرين وبقي فيها عامين (١٩٢١ و ١٩٢٢). ونشأت علاقة صداقة بينه وبين كل من جبران خليل جبران ونعوم مكرزل وميخائيل نعيمة ورشيد أيوب. وأعجب جبران به خطيباً وشاعراً وكتب عنه في جريدة "السائح". بقي الاثنان يتبادلان الرسائل. وكان فارس عندما اشتد به المرض في أميركا أوصى بقلمه لجبران.

عاد فارس إلى لبنان في عام ١٩٢٢. لكنه لم ينقطع عن مراسلة الصحف الأميركية. وبعد مدة قصيرة من العمل في لبنان سافر إلى مصر وبدأ العمل في صحفها. لكنه قرر بعد استشارة أصدقائه العمل في الترجمة في بلدية الاسكندرية. وكان يمارس الترجمة الفورية باللغة الفصحى مع الحفاظ على النص وترجمته حرفياً. ولم يكتف بالترجمة في مصر. بل ألقى الكثير من المحاضرات حول المواضيع التي كانت تستهويه، وصارت جزءاً من كتبه. وأثناء وجوده في مصر راسل صحفاً أفريقية ومجلات برازيلية ونشرت له رسالة إلى مي زيادة ورسالة إلى جبران خليل جبران. وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين مي زيادة دامت طويلاً تبادلا خلالها الرسائل. ولم يتركها في محنتها بما في ذلك في الفترة التي اتهمت فيها بالجنون.

كان فيلكس فارس شديد الاهتمام في التقريب بين الأديان لأنه كان يكره التعصب. فأحبه المسلمون والمسيحيون على حد سواء وأعجبوا بمواقفه.

توفي في عام ١٩٣٧ في مصر على أثر مرض أصابه، ونقل جثمانه إلى لبنان. ترك فيلكس فارس عدداً من الكتب، بعضها من تأليفه وبعضها مترجم. أذكر بين الكتب المترجمة "هكذا تكلم زرادشت" لنيتشه و"اعترافات فتى العصر" لالفرد دي موسيه. أما الكتب التي ألفها فأذكر منها "رواية

الحب الصادق" و"شرف وهيام" و"النجوى إلى نساء سوريا" و"المراحل" و"قلعة حلب" وديوان شعر "القيثارة".

كتب عنه رفيقه وصديقه الأديب اللبناني مارون عبود مفصلاً الكثير مما يقدم صورة كاملة عنه. ويستشهد عبود في كتابه "مجددون ومجترون" بنص لفيلكس فارس بالغ الدلالة حول النهضة: "مدينتنا أسيرة يجب فكها من قيدين ثقيلين يغلان الأيدي والفكر. القيد الأول الحاجات العمرانية، والقيد الثاني النظام الاجتماعي. الأول يجعلنا عبيداً موثقي الاكتاف بخشب، بحديد، بإبرة، بخيط، بنحاسة صفراء توضع على أحذية الأولاد... ذلك استعباد هائل يدمي مقلة شيوخنا ويضيع ثقة نساننا بنا، ويحني ظهور شبابنا باليأس ويموّه جبين الشبيبة المملوءة نشاطاً باصفرار القنوط. القيد الثاني هو ذلك التقليد الذي نأخذه عن الأجانب ونريد أن نجعله نظاماً لالفتنا، مع أننا لا نلائم لحمله ولا يلائم طباعنا ولا الاستعداد الغريزي الذي يجول بدمائنا يرتضي به. يجب أن نرتقي يا قوم، ولكن من يرقينا؟ تقدمي أيتها الصفحات الحاملة آخر جهاد لأول انتصار، انتشري بين شعب فتح عينيه للنور بفضل من تقدم من الأدباء. لقد مضى زمان كان صوتهم يضيع مع الدوي. أما الآن فقد أصبح القسم الأعظم من البلاد يفهم لغة البلاد، وقد لاحت بعض شرارات على ذلك الرماد البارد منذ أجيال. فإلى الأمام أيها النصير، ناد وانفخ، فما أنت نافخ في رماد ولا مناد ميتاً".

ويقول فيليكس في مقال نشره في مجلة "الرسالة" تحت عنوان "نهضة المرأة": "نحن في الشرق، وما أعني سوى الشرق العربي، مجلى ثقافتنا وقوميتنا، لا يهمننا سوى إيجاد الطفل. ولم نزل مسيرين بعقلية القبائل الغازية فنطمح إلى إيجاد الأطفال دون مبالاة بما تؤثر منابتهم عليهم. إن خير ما تستثمر به المرأة للخير العام إنما هو استثمارها أطفالاً يصلحون لتكوين الأمة القوية أجساماً والسليمة عقولاً، وما النهضة المتجلية بين العدد القليل من بنات الشرق بالنهضة التي يصح أن نراها نهضة عامة متغلغلة في

قلب الشعب نفسه. فالمجتمع لم يزل في الشرق العربي بأسره يتبع الافراط والتفريط في تكوين الأسرة.

فالمراة عندنا اثنتان: ضحية استبداد الرجل، وضحية الضلال والغرور بنفسها لضعف الرجل إزاءها".

"لقد تمردت المرأة في العالم الحديث على وظيفتها الطبيعية وصاحت كثيرات من الكاتبات في

وجه الدنيا قائلات: لا نريد أن يحسبنا الرجل آلة للاستيلاء، نحن مساويات له في مجال التفكير والعمل".

كانت لفيليكس فارس مراسلات مع العديد من أدباء عصره أقتطف منها فقرة من رسالة بعثها له

جبران خليل جبران عندما كان في أميركا، وفقرة من رسالة بعثها له الشاعر بشارة الخوري (الأخطل

الصغير).

يقول جبران: "أخي فيلكس.. سلام على روحك الطيبة وقلبك الكبير. لقد سررت جداً بزوال الألم

عنك ورجوع العافية إليك. نحن يا أخي بحاجة ماسة إلى مواهبك فلا تدع العلة تقف حاجزاً بين مواهبك

وحاجتنا.. طيه تجد ترجمة قصيدتك الجميلة إلى الانكليزية. لقد تصرفت بها بعض التصرف فجاءت

كما يريدتها الشاعر لا كما يريدتها اللغوي المدقق. أبعدها الله عن جميع المدققين! أنت بالطبع تعرف

حجم وشكل فرحي بنجاح مشروعكم في هذه البلاد. لكنني أرجوك يا فيلكس أن لا تجهد نفسك ولا تحمل

قواك فوق طاقتها... جبران".

وجاء في رسالة الأخطل الصغير: "أخي الحبيب فيلكس.. ما برحت تحنو علينا أين كنت. ووالله

إن قلباً كقلبك لهو كنز لإخوانك، كما أن أدبك هو فخر المعجبين بك. هذا آخر رسم لي أخذ منذ بضعة

أشهر أبعثه على علمي بأنك لا تسيئ إليّ بنشره بل لتحفظه لديك ذكرى من أهلك. تجد هنا قصيدة

"الريال المزيف" حسبما أمرت. ثم قبّل لي الزغاليل مع تقديم احترامي لأمهّن الفاضلة ولك قبلات أهلك...

بشارة الخوري".

لقد سمعت لأول مرة باسم فيلكس فارس عندما تعرّفت إلى شقيقته الأديبة اللبنانية إميلي فارس ابراهيم، إحدى قادة الحركة النسائية في لبنان على امتداد حياتها. كان ذلك في مطلع خمسينات القرن الماضي. ففي ذات يوم دعّنتي إلى زيارتها في منزل أهلها في بلدة المريجيات في البقاع مع كل من الأديبين رئيف خوري وقدري قلعجي، وهاشم الأمين الذي كان عضواً للجنة المركزية في الحزب الشيوعي ثم خرج أو أخرج من الحزب. وروت لنا يومها إميلي الكثير مما كنت أجهله عن شقيقها فيلكس وعن والدها حبيب فارس وعن اللقاءات التي كانت تجمع كليهما مع كبار أدباء عصرهما. واطلعت فيما بعد على مجموعة مقالات فيلكس التي نشرت في المجموعة الكاملة في مجلة "الرسالة".